الحلم الرقمي: رسم خريطة لتقاطع الذكاء الاصطناعي والفنون
موجز سياسات

لماذا هذا الموجز

يقدّم هذا الموجز خلاصة مركّزة لنتائج تقرير "الحلم الرقمي: رسم خريطة لتقاطع الذكاء الاصطناعي والفنون"، وهو موجّه إلى المنظمات والمؤسسات الفنية والثقافية العاملة في إفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط. وهدفه هو رسم خريطة للشروط والممارسات والتوترات والإمكانات التي باتت ماثلة بالفعل في هذا الحقل، لا طرح أطروحة جديدة ولا وضع خطة تشغيلية.

الحجة الأساسية في التقرير واضحة: الذكاء الاصطناعي لا يدخل إلى الفنون بوصفه موجة تكنولوجية مجردة، بل يصل عبر بنى تحتية غير متكافئة، ومنظومات تمويل هشّة، ولا مساواة لغوية، وارتهانات للمنصات، وإكراهات يومية يفرضها العمل الفني والعمل المجتمعي. وفي هذا السياق، لا يدور السؤال فقط حول ما إذا كان الفنانون يستخدمون الذكاء الاصطناعي، بل حول الشروط المادية واللغوية والأخلاقية والمؤسسية التي تتيح لهم العمل به وفق شروطهم هم.

ما الذي يندرج ضمن الذكاء الاصطناعي في هذا الموجز

في هذا الموجز، كما في التقرير، لا يُقصد بالذكاء الاصطناعي فقط الأنظمة التوليدية المستقلة الخاصة بالنصوص أو الصور أو الصوت أو الفيديو. بل يشمل أيضًا الوظائف المعتمدة على الذكاء الاصطناعي والمضمّنة في البرمجيات الإبداعية، مثل أدوات التحرير، والمعالجة النهائية، والتحسين، فضلًا عن الأنظمة العاملة على مستوى المنصات، التي تتحكم في ظهور المحتوى الثقافي وتداوله عبر آليات التوصية والإشراف.

وتنبع أهمية هذا التعريف الموسّع من أن كثيرًا من الفنانين لا يواجهون الذكاء الاصطناعي بوصفه تقنية واحدة واضحة الاسم، بل بوصفه طبقات متراكبة من القدرات الموزعة بين الأدوات والمنصات والبنى التحتية.

أبرز الخلاصات في لمحة

- الذكاء الاصطناعي حاضر بالفعل في المشهد الفني عبر المنطقة، لكن وتيرة تبنّيه غير متكافئة، وهي تتشكل بدرجة أقل بالحماسة التقنية وبدرجة أكبر بإتاحة البنية التحتية، والتدريب، والأدوات ذات الصلة بالسياق المحلي.
- لا تقع جودة الاتصال، والقدرة الحاسوبية، وموثوقية الكهرباء، وكلفة العتاد، وتعقيدات الدفع، والوصول إلى الخدمات السحابية في هامش المشهد؛ بل هي التي تحدد الأفق العملي للتجريب، وحجم ما يمكن إنتاجه فعليًا.
- اللغة ليست قضية ثانوية. فما يزال دعم اللهجات العربية، والسجلات اللغوية المختلطة، وكثير من اللغات الإفريقية متفاوتًا، بما يخلّف آثارًا مباشرة على التعبير الفني، ومخاطبة الجمهور، والاستمرارية الثقافية.
- يدخل الذكاء الاصطناعي إلى الممارسة الفنية بوصفه أداة، ومادة، وشريكًا، وقيدًا في آن. وهو حاضر في الكتابة، والأداء، وصناعة الصورة، والعمل الصوتي، والأرشفة، والأشكال الغامرة، لكنه يحضر غالبًا عبر الاحتكاك والارتجال والتكيّف الجزئي، لا عبر اندماج سلس.
- ما تزال الهشاشة الاقتصادية، والممارسات الاستخراجية للبيانات، وغموض التأليف، وهشاشة الموافقة، واللايقين القانوني، كلها عناصر تؤطّر هذا الحقل. ومن ثمّ، لا تكتسب المؤسسات أهميتها بوصفها حواضن محايدة، بل بوصفها وسطاء ينظمون الوصول، والأخلاقيات، والتعلّم الجماعي.

البنية التحتية ترسم أفق التجريب

في إفريقيا والشرق الأوسط، تتحدد القدرة على العمل بالذكاء الاصطناعي تبعًا لوقائع مادية ملموسة: سعة الاتصال، والتخزين، واستقرار الكهرباء، وتوفّر العتاد. فالفنان البصري الذي يختبر أدوات توليدية قد يحتاج إلى رفع ملفات كبيرة وتنزيلها بشكل متكرر. والموسيقي الذي يعمل بإضافات مدعومة بالذكاء الاصطناعي أو بخدمات معالجة نهائية عبر السحابة يعتمد على جلسات لا تحتمل الانقطاع. أما القيّمون والمنتجون الذين يديرون الأرشيفات أو البث أو التعاون عن بُعد، فيحتاجون إلى قدرات نقل وتخزين تتجاوز الاستخدام الشخصي المعتاد. وحين تختل هذه الشروط، تتشظى مسارات العمل الفني.

وتظهر هذه الضغوط بوضوح في تونس، وإن لم تتخذ شكلًا واحدًا. فالبلاد تجسّد توترًا إقليميًا أوسع بين تصاعد الطموح الرقمي والحيوية الريادية من جهة، وبين التفاوت في الشروط المادية التي تضبط الوصول إلى سيرورات عمل متقدمة قائمة على الذكاء الاصطناعي من جهة أخرى. وعمليًا، لا يوقف هذا التجريب، لكنه يعيد توجيهه غالبًا نحو صيغ تعتمد على المتصفح، أو على العمل التعاوني، أو على نطاقات استخدام محدودة ومدروسة، بحسب ما يتوافر من بنية تحتية، ودعم مؤسسي، ووصول إلى الأدوات.

اللغة بوصفها سؤالًا فنيًا مركزيًا

يتعامل التقرير مع اللغة بوصفها محورًا تحليليًا أساسيًا، لأنها وسيط فني، وفي الوقت نفسه الواجهة التي تُوجَّه عبرها كثير من أنظمة الذكاء الاصطناعي. وحتى عندما يكون اشتغال الفنانين منصبًا أساسًا على الصورة أو الصوت، فإن نقطة التماس مع الآلة تمر غالبًا عبر الأوامر النصية، أو البرامج النصية، أو ضبط المعلمات، أو التسميات التوضيحية، أو البيانات الوصفية. وهذا يعني أن تفاوت دعم اللغات يتحول إلى قضية جمالية، لا تقنية فقط.

وبالنسبة إلى الفنانين الذين يفكرون ويؤلفون ويؤدّون بالعربية، أو الأمازيغية، أو السواحيلية، أو الولوف، أو الهوسا، أو الأمهرية، أو ضمن سجلات لغوية مختلطة، يصبح الخيار في كثير من الأحيان بين الترجمة والتشويه. فالترجمة إلى الإنجليزية قد تحسّن أداء النظام، لكنها تُضعف النبرة، والإيقاع، والفكاهة، والمستوى اللغوي. أما الاستخدام المباشر للغات ضعيفة الدعم، فقد ينتج مخرجات تبدو غير دقيقة، أو نمطية، أو ناقصة. وفي العربية تحديدًا، يبدو هذا الاختلال أكثر وضوحًا: فقد تحسّن دعم العربية الفصحى الحديثة، لكن لهجات مثل الدارجة التونسية، والدارجة المغربية، والدارجة الجزائرية، ولهجات المشرق، وأنماط الكلام في الخليج، ما تزال ممثلة على نحو غير متكافئ. ومع مرور الوقت، يهدد هذا الخلل بإعادة تشكيل ما يتصوره الفنانون ممكن القول، أو ممكن جعله مقروءًا ومفهومًا، أو ممكن إنتاجه عبر الذكاء الاصطناعي.

الذكاء الاصطناعي داخل الممارسة الفنية

يوضح التقرير أن الذكاء الاصطناعي لا ينبغي فهمه فقط من زاوية البنية التحتية، أو السياسات، أو الأخلاقيات. فهو يدخل أيضًا في قلب الممارسة الفنية نفسها. فعبر المنطقة، يختبر الفنانون حضوره في التأليف، والدراماتورجيا، والعمل الصوتي، والاشتغال الأرشيفي، والمحاكاة. وفي كثير من الحالات، لا تكمن القيمة الفنية في المخرج المصقول بقدر ما تكمن في فعل التحرير، أو الترتيب، أو الترجمة، أو الإخراج، أو مجادلة ما ينتجه النظام. ويغدو الفشل، والعطب، وسوء الترجمة، وعدم الاكتمال جزءًا من المادة الفنية ذاتها.

وتكمن أهمية ذلك في أن المنطقة لا تتلقى الذكاء الاصطناعي من الخارج فحسب، بل تعيد تشكيله أيضًا عبر ممارسات متجذرة في سياقاتها. فالمقاربات قليلة البيانات، والأرشيفات التي تحتفظ بها المجتمعات، والمبادرات المتمحورة حول اللغة، والمهرجانات، والمختبرات، وشبكات الأقران، كلّها تُظهر أن الفنانين يطوّرون طرائق للعمل مع الذكاء الاصطناعي أقرب إلى الذاكرة المحلية، واللغة المحلية، والإيقاع المحلي. وهذه الممارسات ما تزال هشّة، لكنها تُزعزع بالفعل الفكرة القائلة إن فن الذكاء الاصطناعي ذي المعنى يجب أن يعكس بالضرورة بنى وادي السيليكون أو الخليج وجمالياتهما.

العمل، والحقوق، وضغوط الاستخراج

CC BY NC SA

يدخل الذكاء الاصطناعي إلى اقتصاد ثقافي هش أصلًا. فالمواد الإعلامية الرخيصة، المولدة على الفور، باتت تنافس مباشرة أشكالًا من العمل المأجور التي كثيرًا ما تسند الفنانين في بداياتهم المهنية: تصميم الملصقات، والمونتاج البسيط للفيديو، والموسيقى الخلفية، والمواد البصرية الترويجية، وسواها من التكليفات الأولية. وهذا يفرض ضغطًا نزوليًا على الأجور، ويهدد العتبة الأولى للمسار المهني. وفي الوقت نفسه، يتحمل الفنانون الذين يدمجون الذكاء الاصطناعي في عملهم كلفًا إضافية: تعلّم أدوات جديدة، ودفع اشتراكات مسعّرة بعملات أجنبية، وقضاء وقت في معالجة أعطال أنظمة لا ينعكس استخدامها غالبًا في تعويض أعلى.

ويبرز التقرير أيضًا دينامية استخراجية أعمق. فالأساليب، والأصوات، واللهجات، والتقاليد الشفوية، والذخائر البصرية، تُكشط وتُدرج في مجموعات تدريب عالمية من دون موافقة، أو نسبة، أو تعويض. والمفارقة هنا صارخة: قد ينتهي الأمر بالفنانين إلى الدفع مقابل استخدام أدوات دُرِّبت جزئيًا على مواد ثقافية أُخذت منهم أصلًا. ويتفاقم هذا الوضع بفعل العمل غير المرئي الذي تعتمد عليه أنظمة الذكاء الاصطناعي، والذي يُنجَز جانب كبير منه في سياقات إفريقية تحت شروط هشّة. ومن منظور الفنون، لا يكون الذكاء الاصطناعي مجرد أداة إنتاجية؛ بل أيضًا موقعًا يعاد فيه تنظيم العمل، والبيانات، والذاكرة الثقافية، على نحو غير متكافئ.

التأليف، والموافقة، والمسؤولية المؤسسية

لا تتلاشى أسئلة التأليف عندما يستخدم الفنان الذكاء الاصطناعي؛ بل تزداد تعقيدًا. فعندما يجمع عمل فني بين مواد مرسومة يدويًا، أو صوت مسجل، أو لقطات مصوّرة، أو حكايات مستمدة من المجتمع، وبين مخرجات مولدة، تغدو مسألة النسبة غير مستقرة، وكذلك السيطرة الفنية. وقد تستعيد الأنظمة التوليدية أصداء أساليب، وعناصر متكررة، وأصوات قائمة من دون إقرار واضح، فيما تظل الأطر القانونية المتعلقة بحقوق النشر، والحقوق المعنوية، وحماية البيانات، وحقوق الصورة، غير مستقرة عبر المنطقة.

وفي الأعمال المجتمعية والمنخرطة اجتماعيًا، تصبح المسألة أشد حدّة. فلا يمكن اختزال الموافقة في خانة تقنية يُؤشَّر عليها، ولا سيما حين تنطوي المشاريع على صور، أو تسجيلات، أو حكايات، أو معارف محلية جرت مشاركتها ضمن علاقات ثقة. وقد يوافق الناس على المشاركة في عمل فني من دون إدراك كامل للطريقة التي قد تحوّل بها أنظمة الذكاء الاصطناعي مساهماتهم، أو تخزّنها، أو تعيد تداولها، أو استخدامها. وهنا تؤدي المؤسسات دورًا مميزًا: فهي تستطيع بناء معرفة مشتركة، وتوضيح الحد الأدنى من التوقعات المتعلقة بالشفافية والنسبة، والعمل كجهات عازلة بين الفنانين والمنصات، وإنشاء قنوات يمكن عبرها طرح الاعتراضات قبل أن يصبح الضرر أمرًا معتادًا.

منظومة إقليمية متشظية

يشير التقرير إلى اختلال حاد في مشهد التمويل الإقليمي. فدول الخليج تستثمر بكثافة في بنى الذكاء الاصطناعي التحتية، ومؤسسات الإعلام الجديد، ومشروعات رقمية كبرى مرتبطة بمنطق المكانة والوجاهة، في حين تواصل كثير من المنظومات الفنية في شمال إفريقيا وعبر القارة العمل بحد أدنى من الدعم المخصص للذكاء الاصطناعي. كما أن التمويل القائم للفنون الرقمية نادرًا ما يراعي احتياجات الحوسبة، والاختلالات اللغوية، وكلفة البنية التحتية، أو الرهانات الأخلاقية الخاصة بالذكاء الاصطناعي. والنتيجة هي حقل غير متكافئ تصبح فيه بعض التجارب شديدة الظهور، بينما تبقى تجارب كثيرة أخرى ضعيفة الموارد، قصيرة العمر، أو متعذرة الاستدامة.

وهذا الاختلال مهم ثقافيًا بقدر ما هو مهم ماديًا. فبغياب أشكال دعم طويلة الأمد، وميسّرة، ومرتكزة إلى المجتمع، يصبح مستقبل الذكاء الاصطناعي الثقافي معرّضًا لأن يُروى من عدد محدود من المراكز، فيما تُعامل عوالم فنية أخرى بوصفها مصادر للبيانات، أو الجماليات، أو المحتوى، لا بوصفها مواقع للتأليف وصوغ الأجندة.

آفاق يفتحها التقرير انطلاقًا من الممارسة القائمة

العناصر الاستشرافية في التقرير مؤطّرة بوصفها إمكانات تنبثق من الممارسة القائمة، لا بوصفها توصيات أو مخططًا برامجيًا. وبالنسبة إلى المنظمات الفنية، يمكن تلخيص أكثر هذه الإمكانات فائدة في ما يلي:

CC BY NC SA

للفنانين

- التعامل مع مخرجات الذكاء الاصطناعي بوصفها مادة خامًا لا أعمالًا مكتملة. فكثيرًا ما يكمن الفعل الإبداعي في تحرير ما ينتجه النظام، وترتيبه، وترجمته، وإخراجه، وإعادة تأطيره، بما في ذلك أخطاؤه وفجواته.
- الاشتغال على اللغة بوصفها واجهة فنية. فالأوامر النصية، واحتكاك اللهجات، والترجمة، واضطراب الصياغة الكتابية، يمكن أن تصبح جزءًا من عملية التأليف بدلًا من أن تُعامل كمشكلات ينبغي إخفاؤها.
- بناء مدخلات متجذرة محليًا متى أمكن. فالأرشيفات الصغيرة، والمواد التي تحتفظ بها المجتمعات، والمقاربات قليلة البيانات، يمكن أن تدفع استخدام الذكاء الاصطناعي بعيدًا عن الاستهلاك السلبي للنماذج العالمية، ونحو إنتاج متجذر في السياق.
- استخدام المهرجانات، والمختبرات، ومجتمعات الأقران، بوصفها بنية تحتية للإنتاج. فهذه المساحات المشتركة تخفّض الحواجز، وتداول التقنيات، وتُبقي النقاش النقدي حيًا حيث يضعف الدعم الرسمي.

للمنظمات الفنية

- توثيق ما يجري بالفعل. فرسم خرائط للأدوات، وسير العمل، ونقاط التعطل، والأسئلة الأخلاقية المتكررة داخل شبكة فنية، يمكن أن يتحول إلى مورد مؤسسي طويل الأمد.
- توفير دعامة مشتركة، ولو متواضعة. فإتاحة الحسابات، والمعدات، والاتصال، والحيز، والحد الأدنى من الإلمام الداخلي بهذه الأدوات، قد تجعل التجريب أكثر واقعية من دون الحاجة إلى مختبر تقني كامل.
- اعتبار اللغة والموافقة شرطين تصميميين منذ البداية. فالتيسير متعدد اللغات، والانتباه إلى اللهجات وأنماط الكتابة، ووضع ممارسات واضحة للنسبة، واستخدام البيانات، وضمان الفهم المجتمعي، ينبغي أن تُدمج في البرمجة منذ البداية.
- استضافة حوار يغيب في كثير من الأماكن الأخرى. فجمع الفنانين، والتقنيين، والأصوات القانونية، والممولين في مساحة واحدة يخفف العزلة ويوضح مناطق الالتباس.

الأدوار التي يمكن أن تؤديها المنظمات الفنية

يمكن للمنظمات التي تعمل من مواقع منخرطة اجتماعيًا، أو مجتمعية، أو متمحورة حول الفنان، أن تؤدي دورًا أقرب إلى بنى مؤسسية للرعاية والوساطة منه إلى منصات لاستعراض التكنولوجيا. ويحدد التقرير أربعة أدوار تبرز هنا على نحو خاص:

- فضاء إنصات، يستطيع فيه الفنانون، والتقنيون، والشركاء المحليون، وصف تجاربهم مع الذكاء الاصطناعي بلغتهم الخاصة.
- مختبر للتجريب المتأنّي، تختبر فيه مجموعات صغيرة الأدوات ضمن شروط تصوغها الموافقة، والشفافية، والقصد الفني.
- جسر بين الممارسة ونقاشات الحوكمة، يترجم الهواجس الفنية إلى لغة يستطيع الممولون، والمنظمون، والفاعلون التكنولوجيون سماعها.
- مرجع للأسئلة الأخلاقية، خاصة ما يتصل بالتأليف، والموافقة، واستخدام المواد المستمدة من المجتمعات المحلية.

نحو مستقبلات تكنولوجية قوامها الكرامة

يختتم التقرير بفكرة المستقبلات التكنولوجية القائمة على الكرامة. وفي هذا التصور، لا تُستعمل الكرامة بوصفها عبارة إنشائية، بل للدلالة على مجموعة من الشروط العملية: أن يفهم الفنانون ما الذي تفعله الأداة ومن أين تأتي مواد تدريبها؛ وأن تحتفظ المجتمعات بحقها في الرفض؛ وأن يُنظر إلى التنوع اللغوي بوصفه شرطًا تصميميًا لا إضافة ثانوية؛ وألا يطغى التجريب على السلامة، والنسبة، والاستدامة؛ وأن تمتلك المؤسسات ما يكفي من القدرة التنظيمية والتقنية لمساندة العمل من دون إحالة كل قرار إلى منصات خارجية.

CC BY NC SA

مسار للتعلّم المؤسسي

ويستخلص التقرير أيضًا مسارًا يمكن للمؤسسات أن تنتقل عبره من الملاحظة إلى ممارسة متجذرة، من دون تحويل هذا العمل إلى استراتيجية جامدة:

- **فهم أرض الواقع:** رسم خريطة لكيفية التقاء الفنانين فعليًا بالذكاء الاصطناعي، وما الأدوات المتاحة لهم، وأين تتعطل البنية التحتية، وما المخاوف أو الآمال الأكثر حضورًا في الممارسة اليومية.
- **ترجمة هذا الفهم إلى لغة مشتركة:** تسمية المخاطر والإمكانات الأساسية بمفردات يفهمها الفنانون، والمنتجون، والتقنيون، والممولون.
- **التصميم المشترك لإرشادات عملية:** وضع مبادئ واضحة وإجراءات بسيطة تتعلق بالموافقة، واستخدام البيانات، والتأليف، والنسبة، بحيث تكون قابلة للتطبيق تحت القيود الفعلية.
- **اختبار الأفكار عبر تجارب صغيرة مؤطرة بعناية:** فالإقامات القصيرة، والمختبرات، أو المشاريع التعاونية، يمكن أن تعمل كمساحات تجريبية تتطور فيها الأدوات، والأخلاقيات، والأسئلة الفنية معًا.
- **ترسيخ ما تم تعلمه:** توثيق النجاحات والإخفاقات، ومشاركتها مع الأقران، والإبقاء على الأطر منبثقة من الممارسة المعاشة لا من المثاليات المجردة.

هذا التسلسل لا يحوّل التقرير إلى مخطط جاهز؛ بل يصف مسارًا عمليًا يمكن عبره أن يصبح الذكاء الاصطناعي أقل شبهًا بقوة خارجية، وأكثر شبهًا بوسيط تفاوضي تصوغه الفنانات والفنانون والمجتمعات.

وفي ظل هذه الشروط، يغدو الذكاء الاصطناعي أداة واحدة ضمن عدة أدوات في العدة الثقافية. ويمكنه أن يساهم في الترميم، والترجمة، والتأليف، والتوثيق، والتجريب، لكنه لا يقرر ما الذي يُعدّ فنًا ذا قيمة، وأيّ الذكريات تستحق أن تبقى، وأيّ اللغات جديرة بالاستمرار في صورتها الرقمية. وبالنسبة إلى المنظمات الفنية، فهذه هي الخلاصة الأهم في التقرير. فمستقبل الذكاء الاصطناعي في الفنون لن تصوغه النماذج والمنصات وحدها، بل أيضًا المؤسسات، والجمهور، والمجتمعات الإبداعية التي تقرر كيف تُستقبل هذه الأنظمة، وكيف تُنازع، وكيف يُعاد الاشتغال عليها.

أعد هذه الدراسة الباحث، الذي يحتفظ بكامل حقوق الملكية الفكرية لمحتواها، وقد نُشرت بموجب ترخيص «كريتيف كومنز» CC BY-NC-SA 4.0. الآراء والاستنتاجات الواردة في هذه الدراسة تعبر عن وجهة نظر المؤلف المؤلف مسؤول عن دقة المعلومات المقدمة .«Mozilla» أو مؤسسة «L’Art Rue» وحده ولا تعكس بالضرورة آراء "وعن ضمان أن العمل يفي بمعايير الأصالة، بما في ذلك الاستخدام المناسب والإشارة إلى جميع المصادر والمواد